الفصل الثانى

أولاً : إفريقيا فى المزاد العلنى

قلنا أن الحركة الإستعمارية فى إفريقيا التى بدأت فى القرن الخامس عشر، ارتبطت وإلى حد كبير بما تم تحقيقه من اكتشافات جغرافية فى القارة، وتلك هى ما تعرف بالمرحلة الأولى، وقد تزعمت البرتغال هذه المرحلة، حيث اتجهت إلى الساحل الغربى للقارة الإفريقية ومنه إلى الساحل الشرقى، ثم اندفعت إلى عُمان فى طريقها إلى الهند (سيرد بيان فى ذلك فى حينه).

وجاءت المرحلة الثانية فيما قبل مطلع الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتميّزَتْ هذه المرحلة بسباق محدود من دول استعمارية حديثة العهد بالإكتشافات مثل أسبانيا وهولندا وإنجلترا وفرنسا.

أما المرحلة الثالثة: فهى التى كانت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأهم ما يميز هذه المرحلة أن دولاً إستعمارية عديدة اندفعَت نحو قلب إفريقيا، وتوغلت فيه.

وكانت بلچيكا أسبق الدول وصولا إلى قلب القارة، واستولت على أوغندة، ثم اندفعت ألمانيا بعد ذلك فاستولت على الجنوب الغربى الإفريقى، وتوجولاند، والكاميرون وشرقى إفريقيا.

ثم زَحفَت دول أوروبية أخرى وتدافعت لإقتسام القارة، شجعها على ذلك الدعم الأمريكى الهائل والمتنوع بكل صفوف العون والمساعدة، الذى ترمى أمريكا من خلاله إلى تحقيق العديد من المكاسب السياسية، والاقتصادية، والمادية، يأتى فى مقدمتها:

● تفتيت القارة السمراء على أيدى وكلائها الأوروبيين من دون تدخل أمريكى مباشر تعامُلاً مع المقتضيات المرحلية فى السياسة الرامية للإنفراد بحكم العالم عندما يحين الوقت المناسب طبقا لبرامج عملية محسوبة ومدروسة وموقوتة.

وقد حلت تلك النكبة الكبرى على إفريقيا، وحاق بها ما دبّر المتآمرون من مخططات فى الوقت الذى تعانى فيه من كثير من المشكلات (السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية) الأمر الذى يَسَّر للأوروبيين التسلل إلى قلب إفريقيا والتغلغل فيها وإقامة مراكز نفوذ وسلطة.

● فمن الناحية السياسية: فإن زعماء القبائل والعشائر فى إفريقيا كانوا يمسكون بزمام السلطة من غير منازع بإعتبارهم حكاما على الإطلاق، مطلقة أيديهم فى التصرف، وقد استغل المستعمرون هذا المدخل، وأحسنوا توظيفه، فلوّحوا لأولئك الحكام بالرفاهية والترف، مع ضمان استمرارهم فى السلطة، فتعاونوا معهم، وعقدوا معهم الإتفاقات والمعاهدات، وابْتَاعَ المستعمرون منهم بعض الموانئ الهامة، والمواقع الحساسة التى أُقيمَت عليها المراكز التجارية والعسكرية بعد ذلك.

● ومن الناحية العسكرية: فإن إفريقيا كانت وإلى عهد قريب تعانى من بدائية سلاحها وأدوات تسليحها، ووسائلها الحربية، التى لم تتمكن من التصدى فى مواجهة الأسلحة الأوروبية الفتاكة، التى أخذها الغرب عن العرب، وقد طوروا صناعتها ثم وجهوها إلى صدور العرب والمسلمين والهجوم عليهم فى ديارهم وعلى جيرانهم من الأفارقة والأسيويين.

● ومن الناحية الاجتماعية: فإن الحاكم المطلق فى إفريقيا كان يَحُول دون وجود ملكية خاصة للأفراد بحيث تدفعهم إلى الدفاع عن ممتلكاتهم، والذود عن ديارهم هذا بخلاف اعتماد الكثيرين من الأفارقة على حياة التنقل الجماعى (البدوى) بحثا عن الكلأ، والقُوت، الذى تلعب حرفة الصيد لتوفيره دورا كبيراً، ولعل هذا ما مهّد الطريق أمام الإستعمار الذى إذا ما حل بأرض اتّجه الأفارقة إلى أرض سواها وذلك بفضل مساحة القارة الشاسعة.

● ومن الناحية الثقافية: كانت إفريقيا تشبه وإلى حد كبير ما كانت عليه أوروبا قبل عصر النهضة الأوروبية، وما صاحبها من ثورة صناعية، واكتشافات جغرافية فلم تستطع إفريقيا الإنتفاض على حالة الفقر والتخلف، واكتفى الأفارقة بممارسة الحرف البدائية كالرعى والصيد، وأهملوا الزراعة، وباتت القارة عاجزة عن استغلال مواردها وثرواتها الطبيعية حتى الآن.

وقد ساهم ذلك كله فى تهيئة الظروف ومواتاتها تماما أمام المستعمر الأوروبى الذى ساعده على سقوط القارة مبكراً ضحية له – هو – ما فعله مع مطلع القرن الخامس عشر، حينما وطأت أقدامه إفريقيا، حيث كانت مأساة الرق بمثابة السيف الذى انغمس فى ظهر الأفارقة، فأضعف قدرتهم، وَنَسَفَ امكانياتهم وحطم مقدرتهم على مقاومة الطوفان الإستعمارى الوافد.

ولما صارت إفريقيا كلها فريسة للإستعمار الأوروبي، راح الأوروبيون يقتسمون القارة، أو بالأحرى يمزقونها بمخالبهم وينهشونها كما تفعل السباع الضارية بفريستها

حتى أوْشك تنافسهم الاستعمارى أن يجعلهم على شفا الصراع الحتمى، فتداركوا الموقف، واتفقوا على تقسيم الفريسة بدلاً من التصارع عليها.

ومن هنا شهدت أوروبا سلسلة من المعاهدات والإتفاقات من أشهرها، وأهمها معاهدة برلين (١٨٨٤ : ١٨٨٥) بمشاركة : بريطانيا، فرنسا، إلمانيا، بلچيكا، البرتغال، أسبانيا، وإيطاليا. ويمكن القول أن أوروبا قد اجتمعت ووقعت علي معاهدتين أو هما (اتفاقيتين) الأولى هى معاهدة (لندن) سنة ١٨٤٠م. والتى جمعت الحلفاء فى مواجهة الإمبراطورية المصرية لتقليم أظافرها وإجبارها على الخروج من أوروبا. وتحجيمها فى محيطها الجغرافى، وقدكان ذلك بعد أن تمكنت بريطانيا من احتلال مصر عام ١٨٨٢، وكذلك تمكنها من فصل السودان عن مصر عام ١٨٨٥م وبذلك سقط قلب إفريقيا تحت وطأة الإستعمار.

أما معاهدة (برلين) فى ٨٤ : ١٨٨٥م فقد كانت ثانى اجتماع أوروبى، غير أنها كانت هذه المرة تعد أول عمل دولى يهدف لتقنين وتنظيم السطو على الجسد الإفريقى كله ونهبه وسلبه، ومن أهم ما جاء فيها: المادة ٣٤ والتى تدل علي روح المؤتمر، وأن المقصود منه هو حماية الدول المستعمرة، وليس رعاية الفريسة حيث تنص هذه المادة على الآتى:

(تلتزم كل دولة من الدول الأطراف فى هذه الإتفاقية فى حالة قيَامها بوضع يدها، أو تقرير حمايتها على أى إقليم من إفريقيا بإبلاغ ذلك إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه الإتفاقية).

وواضح من هذا النص أنه يفتح الباب على مصراعيه لسلب أى بقعة من إفريقيا، وليس على السالب من حرج، وكل ما عليه أن يبلغ ذلك إلى الدول الأخرى حتى لا ينافسه سالب آخر(١).

وقد علق أحد الباحثين على هَذه المعاهدة بقوله (لقد كان معنى مؤتمر برلين إضفاء الشرعية، والأحقية الدولية علَى التهام قارة من قارات العالم، وكان معنى نصوص المعاهدة أن التملك بوضع اليد جائز فى الأرض غير التابعة لدولة أخرى من الدول الموقعة على الإتفاقية، سواء أكانت مسكونة بقبائل رحالة أو بأمة من الأمم، ولم يكن يدرك رؤساء القبائل معنى العهود التى تضعهم تحت الحماية الإستعمارية، ومعنى هذا أن الإتفاقية لم تفكر فى حرية الشعوب الإفريقية، ولا فى إرادتها، ولم

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤٢٠ .

تلاحظ مشيئة الشعب فى مَصير وطنه على الإطلاق، وتجاهلت الدول الأوروبية هذه الشعوب على اعتبار أنهم لا وجود لهم فى نظر القانون الدولى العام[١].

وهكذا تدفق الأوروبيون من كل حدب وصوب على القارة السمراء، واقتحموا أعماقها، وعملوا على إزالة الأسماء القديمة للدول أو المناطق التى نزلوا بها وأزالوا الحدود التى وَضَعَهَا أبناء القارة، وأعادوا تقسيم القارة وتسمية أجزائها، وإصباغها بصيغة جديدة لا تتفق وحقيقة التاريخ كما هو الكائن حاليا ونسمع به:

١- إفريقيا الغربية الفرنسية .

٢- إفريقيا الغربية البريطانية .

٣- إفريقيا الإستوائية الفرنسية .

٤- إفريقيا الشرقية الألمانية .

٥- إفريقيا الجنوبية.

٦- إفريقيا البرتغالية ... إلى غير ذلك.

وزادت أوروبا إلى تقسيم البلد الواحد، وتجزئته، كما هو كائن (الصومال الإيطالى، الصومال الفرنسى، الصومال الإنجليزى).

زد على ذلك ما كان من الإستعمار وما ذهب إليه من تسمية بعض المناطق بأسماء الملوك الأوروبيّين، أو مكتشفى تلك المناطق مثل (رودس، سيشل، روديسيا، بحيرة فيكتوريا، بحيرة ألبرت، استانلى فيل،، ليوبولدفيل) ... إلخ.

كما تقاسم الإستعمار كل إفريقيا عدا (أثيوبيا، ليبيريا) وذلك لأنهما تدينان بالمسيحية دين المستعمر الأوروبى، وقد احتلت إنجلترا (مصر، والسودان، وكينيا، وأوغندا، والصومال البريطانى) (أعمال الإمبراطورية المصرية سابقا) ونيجيريا، وغانا، وسيراليون، وبتسوانالاند، واتحاد وسط إفريقيا، وجنوبى إفريقيا.

واحتلت فرنسا: (تونس، والجزائر، مراكش، إفريقية الغربية الفرنسية، وإفريقيا الاستوائية الفرنسية، الكاميرون، مدغشقر، والصومال الفرنسى) .

واحتلت بلجيكا: الكونغو وأوراندى.

واحتلت البرتغال: مناطق على الساحل الشرقى، والغربى لأنجولا، وغينيا البرتغالية.

واحتلت أسبانيا: بعض الجُزر بغربى إفريقيا وبعض المناطق فى شمال إفريقيا وغربها.

---

(١) الجغرافيا السياسية لإفريقيا ص٤٨ د. فيليب رفله.

واحتلت إيطاليا: ليبيا والصومال ثم أثيوبيا لفترة قصيرة إبان عهد موسوليني.
واحتلت ألمانيا: أفريقيا الشرقية الألمانية، وأفريقيا الجنوبية، وتوجولاند، والكاميرون.

ويمكن القول بأن البرتغاليين أول من ابتدع تجارة الرق في التاريخ بحثا عن الثراء السريع، ثم نقل عنهم الهولنديون ممارسة هذه التجارة اللعينة، ثم الفرنسيون، والإنجليز، والدانمركيون، والأمريكيون، وقد تنافسوا جميعا فى سرقة الرجال والنساء والأطفال الأفارقة، وإخراجهم من بلادهم لبيعهم فى العالم الجديد.

ولمدة (٣٠٠) ثلاث مائة سنين ظلت إفريقيا تُنتهك حرماتُها، وتُدمّر مُقدساتُها، وتُفسد أخلاق حكامها وأهليها، وتشوه حياتها الاجتماعيّة، وتنهار طاقاتها حتى غرق جزء كبير من القارة فى غياهب الظلمات والجهل ولم تفق منها تماماً حتى الآن.

وقد أراد المستعمرون وتجار الرقيق من البيض الإعتماد على قوة ذات تأثير يمكن أن تسهل لهم تجارتهم، وتبررها بحيث لا يحول دونها حائل أو أن يمنعها مانع.

فلم يجد أمامه سوى رجاله من بعثات التبشير التى بَنَت الكنائس، وجذبوا إليها الكثيرين من أبناء القارة تحت مبررات سبق القول فيها.

ومن هنا وقع رجال الدين والكنيسة أسرى للإغراءات المادية الكبيرة التى أغراهم بها الإستعمار، وقد اكتفت الكنيسة بنَصيب يخصص لها من الأسلاب التى تُسْلَب من القارة.

وهكذا عمل رجال الدين المسيحى فى خدمة الإستعمار، وأعلنت الكنيسة أنها ستُعَمِّد العبيد المرسلين إلى أمريكا بدعوى إنقاذ أرواحهم.

وراح مندوبوا الكنائس يجلسون على مقاعدهم الرخامية على الشواطئ حيث يقوم المندوب فيُعمّد العبيد، ويقبض نصيبه من رسوم التصدير التى أصبحت مورداً هاماً من موارد الكنيسة[1].

وكان هذا الإتجاه من الكنيسة يساير رأى بولس الرسول عن العبيد، فقد جاء فى رسالته إلى أهل إفسيس «أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد، بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد للمسيح، عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنيَّة صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حُراً».

---

(١) الإستعمار الأوروبى لإفريقيا ص١٣٨ د. زاهر رياض.

هذا وقد أساء التجار إلى المسيحية وجعلوها قناعًا وستارًا لتجارتهم غير المشروعة، وكان من مظاهر التمسح بالمسيحية أن أشهر تجار الرقيق فى ذلك العصر (جون هوكنز) أطلق على سُفُنه أسماء (المسيح، الملاك، نعمة الرب)، وجعل يطلق على كل رحلة تُبحر بتجارته من بنى البشر عبارات مقتبسة من الكتاب المقدس مثل (اخدموا الرب، ليحب بعضكم بعضا)[1].

ويجدر القول أن المسيحية الأوروبية ليست مصدر الإلهام لهذه التجارة إلا أنها كانت العباءة التى يرتدونها هؤلاء التجار.

فقديما قسّم فلاسفة اليونان الجنس البشرى إلى قسمين (حُرٌّ بالطبع، رقيق بالطبع)، كما حدد أفلاطون طبقات المجتمع فى كتابه (جمهورية أفلاطون) وقرر فيه حرمان العبيد من حق المواطنة، وإجبارهم على الطاعة والخضوع لسادتهم، ووافَقَهُ على ذلك أرسطو، وقرر أيضًا أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة للأسياد[2].

وامتدت هذه الأفكار المسمومة لتصل إلى مفكرى العصر الحديث ومن أشهرهم (مونتسكيو) ١٦٨٩ : ١٧٥٥م، وهو من أكبر فلاسفة الفكر الفرنسى، وقد ثبت قوله (إن لنا حقا مكتسبا فى اتخاذ الزنوج عبيداً، إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها الآن إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا كى تستخدمها فى استغلال هذه الأقطار الفسيحة، فما هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ولا يمكن أن نتصور أن الله جلّت قدرته، وهو ذو الحكمة السابغة، يضع روحًا طيبة فى هذا الجسم الحالك السواد).

وانطلاقًا من هذه المفاهيم السائدة عند البيض ومؤيديهم، ومع وصول أسبانيا إلى العالم الجديد (الأمريكتين) وإقامة مستعمراتها ومزارعها هناك خصوصا فى أمريكا الجنوبية، ذات المساحات الواسعة والمزارع الشاسعة مع ندرة الأيدى العاملة، الأمر الذى أدّى إلى شدة احتياج الأسبان للأيدى العاملة، مما جعل الأسبان يتعاقدون مع التجار البرتغاليين على توريد الأيدى العاملة لإسبانيا.

وهكذا بدأت شحنات العبيد الإفريقية إلى المزارع الأسبانية فى العالم الجديد منذ مطلع القرن السادس عشر، وقد اشتغل بالعمل فى هذه التجارة اللعينة غير البرتغاليين كل من(الهولنديون، الفرنسيون، الدانمركيون، والإنجليز).

ثم تبوأت بريطانيا مكان الصدارة فى هذه التجارة حتى أصبحت عمادها الأساسى للوفاء باحتياجاتها من الأيدى العاملة المجانية للعمل بمزارعها الواسعة خاصة

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤٣٦ .

(٢) انظر مقارنة الأديان – كتاب الإسلام . د. أحمد شلبى.

بعد الضعف الذى حل بالبرتغال، واستيلاء المستعمرات البريطانية فى الهند على الممتلكات البرتغالية هناك.

وقد نقلت بريطانيا وحدها فى المدة من ١٦٨٠ : ١٧٨٦م أكثر من مليونين من الأرقاء الأفارقة، كما وصلت أعداد ضخمة إلى المستعمرات الأخرى عن طريق تجار الرقيق الآخرين، ومن الواضح أن ما كان يصل من الأرقاء لا يزيدون عادة عن نصف العدد الإجمالى الذى تم شحنه من موانئ إفريقيا، وذلك لأن النصف الآخر كان يموت فى الطريق ، ولعل هذا يبين العدد الضخم الذى إسْتُنْزِفَ من القارة، والذى يقدره بعض الباحثين بحوالى ٨٠ ثمانين مليونا من الأفارقة(١).

سوق النخاسة

كانت تقام على سواحل القارة لقرب سفن الشحن، ولسرعة تحميلهم بعد تحصيل أثمانهم، وكان الرقيق يقفون فى هيئة دائرة، بحيث يقف الرجال وحدهم ووجوههم نحو مركز الدائرة لا يتحركون، والكثيرون منهم لا يقدرون على الوقوف من شدة ما عانوه، وهول ما قاسوه وسوء ما شعروا من جوعٍ وعطشٍ، وآلام ما وجدوا من ضرب طوال مدة السير على الأقدام من نقطة إقامتهم ومقارهم حيث تم القبض عليهم من منازلهم ومزارعهم، إلى مكان السوق، بينما يقف التُّجار أو مندوبوهم، أو راغبو الشراء فى وسط الدائرة، ثم يَقُوم الراغب منهم فى الشراء بتحسس السلع البشرية المعروضة.

أما البنات والسيدات، فكن يقفن صفوفًا بينما يتقدم تجار الرقيق نحوهن، فيتحسسوهن بما يعرضهن لألوان شتى من المهانات، بحيث تتعرض للاعتداء الفاضح العلنى التى تُعارِضُ مَنِ يتحسسها ليتعرف عليها.

وقد احتلت مملكة الزنج (زنجبار)، وبلاد السنغال مكان الصدارة فى إقامة هذه الأسواق التى لا تعرف إلا تجارة السلع البشرية على أراضيها.

غير أن هذه المَذَلَّة لا تنتهي بمجرد بيع وابتياع هذه السلعة البشرية، حيث يلقى هؤلاء أشد أنواع القهر والمهانة والعذاب أثناء ترحيلهم من السواحل الإفريقية إلى الأرض الجديدة، حيث تبذل الشركات العاملة فى هذه التجارة أقصى جهد لها لتحقيق أوفر الأرباح وأعلاها، ومن ثم فإن ما يسمونهم العبيد، كانوا يحشرونهم فى السُّفُنِ مقيدين بالأغلال الحديدية المثبتة فى جدران السفن أو فى أرضيتها، فى مكان

---

(١) الإستعمار الإفريقى لأوروبا ص٧٠ د. زاهر رياض .

لايسمح للواحد منهم بالجلوس طوال الرحلة من شدة الزحام، مما يتسبب فى موت عدد من الرقيق خلال الرحلة، هذا فضلا عن أن ربان السفينة بعد قيامها كان إذا اكتشف أن عدد أفراد الشحنة يزيد عن طاقة سفينته، فإنه كان يتخلص من بعضهم بإلقائهم فى البحر، وإذا ما احتج بعض العبيد على هذه التصرفات يكون الجلد العلنى، أو إطلاق الرصاص عليهم هو الرد الطبيعى على احتجاجهم .

وقد قدّر بعض المؤرخين نسبة أعداد الموتى إلى الأحياء بنسبة السدس إلى إجمالى العبيد المسافرين فى كل رحلة على حدة، وقد ذكر آخرون أن الناجين لا يزيدون عن نصف عدد الشحنة عند مغادرتها الموانئ الإفريقية .

وهكذا بِيعَ الأفارقة فى أسواق النخاسة، ثم سِيقَ بهم إلى الأرض الجديدة للقاء المجهول حيث ينظر الناس هناك إلى الإنسان الأسمر على أنه سلعة أكثر منه إنسانا وبدأت بذلك أكبرالمآسى الإنسانية التى عرفها التاريخ الإنسانى كله .

* * *

التخلف الإفريقى فى الميزان

سبق قولنا فى أن القارة الإفريقية باتت عاجزة عن استغلال مواردها لعجزها عن الإنتفاضة على حالة الفقر والتخلف، وكذلك لعدم مقدرة أبنائها تصحيح مسار حركة التاريخ الذى ضل طريقه بفضل عوامل الإنحراف المتعددة التى تعرض لها، وقد ضل الأفارقة بالتالى طريقهم إليه حتى الآن غير القليل مثل (مصر، جنوب إفريقيا، نيجيريا)، وقلنا إن ما كان فى إفريقيا ليس إلا نتاجا لمجموعة من العناصر (السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية) .

غير أن الآثار التى نَجَمَتْ عن قضية الرق فاقت كل التصورات، وسبقت أسوأ التوقعات حيث وصل سباق سماسرة الرقيق وأعوانهم إلى حد حرق المنازل، والقيام بالغارات الليلية على السكان ليلا، وعند هروب الناس يؤخذون عبيداً، بعيداً عن ديارهم إلى العالم الجديد، كما أن أوروبا عَرضَت فى إفريقيا كل منتجاتها وصناعاتها مقابل العبيد، هذا فضلا عن الملايين من عمال المعادن، والنساجين، وصانعى الأخشاب، وقد قُتلوا فى الحروب، أو أرسلوا عبيدا ضمن الشحنات التى وصلت إلى العالم الجديد للعمل بالمزارع الواسعة هناك لدى الإنجليز والأسبان والفرنسيين.

ومن هنا لم تكن حاجة لإقامة الصناعات فى إفريقيا، هذا بخلاف اضمحلال وتلاشى الصناعات الإفريقية مثل الأعمال البرونزية، والحفر على الخشب، وبعض الصناعات التعدينية المتاحة آنذاك وبدا الحال وكأنه لا فائدة من التخطيط للمستقبل أو الزراعة أو من التفكير فى أعمال جيدة.

فالحاصل للناس جعلهم يعيشون لِيَوْمِهِم فقط دون أدنى تفكير أو تخطيط للمستقبل.

وهكذا تفسخت المجتمعات الإفريقية، وتقطعت أواصر الصلات بين العشائر والقبائل والأفراد على السواء، وتَركت تجارة الرقيق آثاراً نفسيةً عميقةً تجلت بوضوح فى شك الأفارقة وريبتهم وحَذَرِهم، بل وعدائهم الكامن فى صدورهم الذى ينطبع على العلاقة بكل أبيض يقابله حتى اليوم.

ومن هنا يمكن التأكيد على أن مأساة تجارة الرقيق هى بحق السبب المباشر فى الإنحدار الإفريقى الشديد وانحراف القارة بسرعة نحو التخلف، والتأخر عن مواكبة الركب، بعد أن كانت للأفارقة حضارات متقدمة، مثل الممالك الإسلامية والحضارات القديمة التى تحدثنا فيها سابقا، وكذلك ممالك «اليوربا، وبنين» فى القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر الميلادى، أى قبل الهجمة الإستعمارية الأوروبية الشرسة على القارة السمراء بحَوَالَىْ ثمانية قرون على الأقل.

ولم تُضمَد إفريقيا جراحها التى سبَّبَها الإستعمار حتى الآن.

* * *

ثانيًا : الأفارقة فى شبَاك التنصير

قلنا سابقا: إن الإستعمار عمل على إقامَة قلعة مسيحية فى إفريقيا تعمل فى خدمته، وتُحصّل له أطماعه، وتنشر له أفكاره، وفى سبيل ذلك ساند المستعمرون الحبشة بكل قوة حتى أصبحت كما تمنوها بحيث ينتفعون بها وينفعونها.

وقد عمل الأحباش كذلك بكل قوتهم لخدمة الإستعمار الأوروبي فى إفريقيا وبذلوا جهوداً غير مسبوقة على تنصير أو تكفير الشعب المسلم فى المناطق التى سيطرت عليها الحبشة، فى أَخَسّ صور التعامل الإنسانى وألوانه وأدواته وهى فى جملتها لا تقل بشاعة وخسّة ونذالة عما فعل المستعمرون بالأفريقيين عند بيعهم كعبيد وبهذا يكون الإستعمار قد نجح فى إبادة الأفارقة بالأفارقة بعد أن منح الحبشة توكيلا خاصا فى التعامل مع المناطق الإسلامية التى استولت عليها، ومعالجة قضاياها بالطريقة التى يَراها الأحباش الذين مارسوا أبشع صور الإجرام والقتل وفعلوا ما تعجز الكلمات عن وصفه، ومن أشهر تلك الحوادث المأساوية .

* * *

(أ) هرر والصومال

بعد أن استولت الحبشة على إمارة هرر الإسلامية وملحقاتها، وبعض مناطق الصومال «التى ذكرناها سابقا»، عند نهاية القرن التاسع عشر.

أصدر ملك الحبشة أوامره التى نُفِّذت على الفور، فأُغْلقَت المدارس، ومراكز العلم، وهُدمت المساجد، وأُحْرِقت المصاحف، ومُنع المسلمونَ من إقامة شعائرهم الدينية، كما أُلقيِ القبض على أكثر العلماء، فاعتُقِل بعضهم، وقُتل أكثرهم بالطرق الخبيثة.

وكذلك فقد فُتِح الباب على مصراعيه لهجرة المبشرين المسيحيين الوافدين، وأعطاهم الملك الأموال والأراضى التى انتزعها من أيدى المسلمين، وقدم لهم كافة أشكال الدعم المعنوى، والمساعدات المالية الكافية، وعهد إليهم بتكفير الشعب المسلم فى كل المناطق التى دخلتها قواته، وبخاصة الفّلاحين.

وحينما قاوم الفلاحون بالاحتجاجات والدعاوى كانت تقدم إليهم الإجابة على الفور بواحدة من الطرق الثلاث الآتية :

- الضرب الفورى بالرصاص .
- الإيداع فى السجون ومقابلة المجهول.
- الحكم بالإعدام طبقا للقوانين العسكرية المعمول بها آنذاك.

هذا وقد أُرغم الكثيرون على بيع أراضيهم.

وقام المبشرون أعضاء جمعيات التبشير والتنصير إمّا بخطف الأطفال الأيتام، وإما بقتل رب العائلة أمام ذويه، وتَسليم الأطفال إلى جمعيات التنصير، وكان الصليبيون من الفرنسيين يشجعون على هذه المعاملة الوحشية، ويعاونون على الظلم والإعتداء، ولكن كل ذلك لم يحقق أى نجاح ولم يأت بنتيجة تذكر فى تكفير المسلمين(١).

ولا تزال إلى الآن المناطق التى يسكنها مسلمون، والخَاضعة تحت حكم الأحباش موضع صراع مرير بين الصومال والحبشة.

وقد ذكرنا سابقًا أن الأوروبيين قد هيأوا للأحباش دخول تلك المناطق خاصة بعض نفى الخديوى إسماعيل، وتقسيم مناطق النفوذ المصرى فى إفريقيا.

وبهذا وضعت منطقة القرن الإفريقى الحيوية تحت الإستعمار الأجنبى، تعاونه الحبشة المسيحية فى القضاء على الوجود المصرى مبكرًا فى تلك المنطقة، أما حديثا فإن الولايات المتحدة الأمريكية وهى (النموذج الإستعمارى المنفرد والخاص) أصبح لها الآن وجودا فعليا كذلك فى الجهة المواجهة على الجانب الآخر حيث تعيش اليمن تحت مظلة الصواريخ الأمريكية، بل وهناك ما يطلق عليهم «الخُبَراء» فى مجال

---

(١) تاريخ الصومال ص٢٠٠ جامع عمر .

ما يسمى مكافحة الإرهاب، موجودن بالفعل على أرض اليمن، وما ذلك إلا بقصد حرمان مصر من قواعدها الأمنية الخلفية عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وهو (البحيرة العربية الخالصة) وقد تحول الآن إلى ممر دولى تتسيدهُ سيدة العالم الأولي (أمريكا) ببوارجها وغواصاتها وعابرات القارات ومطاراتها العائمة بحيث يفقد العرب سيادتهم على أراضيهم، وعلى مياههم الإقليمية، وكذلك لضمان أمن إسرائيل، وحمايتها، وضمان تفوقها ولدرء أى خَطر يهددها.

ونؤكد ههنا على أن القوى الأوروبية هى التى هيأت فيما بعد سنة ١٩٥٠م الإستيلاء على منطقة إسلامية خطيرة هى (إريتريا) تحت دعوى تكوين اتحاد فيدرالى بينها وبين الحبشة، لتزداد قوة الأحباش، وبالتالى يزداد النفع الأوروبى منها خاصة أن الحبشة دولة حبيسة لا ترتبط بحريا بالعالم الخارجى إلا عن طريق الموانئ الإريترية المحتلة وقد خلق هذا الوضع بؤرة جديدة للصراع والتوتر فى منطقة القرن الإفريقى ومازال حتى الآن رغم اعتراف الأمم المتحدة باستقلال إريتريا كونها دولة مستقلة ذات سيادة.

وقد استغلت أوروبا آنذاك الظروف السياسية المضطربة فى منطقة القرن الإفريقى خاصة بعد أن سمحت الأمم المتحدة الإيطالية بالوصاية على هذه المنطقة بينما رفضت مَسألة تأسيس الدولة الصومالية فى ذات العام بدعوى التأجيل.

ومازال الصراع الإريترى الصومال الحبشى (الأثيوبى) متأججًا إلى الآن ولازالت الدبابات تتحاور فى إدارة ذلك الصراع بضراوة وبشدة.

* * *

(ب) زنجبار فى ذمة نيريرى

مملكة زنجبار الإسلامية :

زنجبار معناها : «ساحل الزنج» أو «مملكة الزنج»، ونَسَبُها لزنوج إفريقيا. تاريخها طويل حافل بصور النجاح والفشل وخاتمته مريرة وحزينة، وفد إليها الفرس والعرب، وذابوا جميعا فى المجموع الإسلامى، وقد امتد تاريخها عبر قرون طويلة، واتسعت رُقعتها وكَثُر عدد سكانها، واحتلت مكانا استراتيجيا فى المنطقة والعالم، إلا أن الإستعمار قضى عليها تمامًا ومزقها إلى أشلاء، ووزع هذه الأشلاء على ممالك يتسم الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة.

والمسيحية كما يقرر الواقع ويشهد التاريخ وتؤكد الشواهد متعصبة دائمًا إذا ما كانت هى غالبية السكان أو ما إذا صارت لهم الغلبة بفضل ظروف سياسية معينة.

وبعد أن تسلمت الممالك المسيحية أشلاء زنجبار الإسلامية، صَبَّتْ على هذه الأقليات الممزّقة جام غضبها، وأذاقتها ألوان العذاب حتى ردُّوهم إلى المسيحية قهراً، وقتلوا الكثيرين قهراً، بينما تظاهر آخرون باعتناق المسيحية بعد أن أُكرهوا على ذلك، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان.

وواصل هؤلاء الحكام المهمة التى بدأها الإستعمار ضدّ مواطنى زنجبار، حتى اختفت هذه المملكة من الوجود.

وكانت زنجبار تتبع عُمَان فى عصر الأئمة، ثم أصبحت تابعة لحكم البوسعيديّن سلاطين (الدولة الآسيوية الإفريقية) التى بلغت ذروة مجدها إبان حكم السلطان سعيد بن سلطان الذى خلف والده سنة ١٨٠٦م، وقد دام حكم الدولة الآسيوية الإفريقية حتى عام ١٨٥٦م.

وقد نقل السلطان سعيد العاصمة من مسقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢م، بغرض تقوية نفوذه على الساحل، واستطاع أن يضم إلى سلطته جميع الموانئ الهامة، والجزر الساحلية، وامتد نفوذه من جنوب «مقدشو» شمالا إلى «سفالة، وتونجى» جنوبا، ووصل إلى داخل إفريقيا حتى حدود الكونغو وأوغندة وروديسيا، وانتشرت فى هذه الأجزاء كلّها شبكة من خطوط القوافل، تربط بين الساحل، وشواطئ فيكتوريا وتنجانيقا (تنزانيا الآن)، ونيَاسَا، وتابع السلطانُ توغُله فى الأجزاء الشرقية من الكونغو، وعلا صيتُه حول البحيرات العظمى حتى كان يقال «إن الناس على شواطئ البحيرات العظمى يرقصون على أنغام زنجبار»[١].

وقد صادف السلطان سعيد نجاحًا كبيراً على الرغم من أن عصر الإستعمار الأوروبى كان قد بدأ، واتجهت القُوى الأوروبية لمصارعة السلطان المسلم فى مناطق نفوذه[٢] وعقب وفاة السلطان سعيد انقسمت دولته إلى سلطنتين:

الأولى: آسيوية فى عُمان.

الثانية: إفريقية تشمل الساحل الإفريقى، والجزر المواجهة له، وكان يحكمها أبناء السلطان سعيد الذين استمروا فى الحكم حتى مطلع عام ١٩٦٤م.

وبوقوع الهجمة الإستعمرية الأوروبية على إفريقيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، اتجهت قوى الإستعمار نحو ساحل زنجبار، فظفرت بريطانيا بنصيب الأسد، وتقلصت زنجبار حتى فُرِضَتْ عليها الحماية البريطانية سنة ١٨٩٠م،

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤٠٩.

(٢) قضية كينيا ص٢٢ د.عبدالعزيز كامل.

واستمرت كذلك حتى أعلنت زنجبار انفصالها عن التبعية البريطانية، واستقلالها التام فى ٩/١٢/١٩٦٣م، ثم قُبلت عضواً فى هيئة الأمم المتحدة ١٦/١٢/١٩٦٣م، إلا أن زنجبار أُغتيلَت فى صباها، فلم يُقدّر لها أن تهنأ باستقلالها غير ٣٢ يوما فقط هم عمر عرسها.

وكما أوعزت بريطانيا إلى الحبشة بالزحف على هرر الإسلامية فَوْر خروج الجيش المصرى منها وضمها إليها، كذلك أوعزت إلى تنجانيقا (تنزانيا) بالزحف على زنجبار والتهامها.

ففى الثانى عشر من يناير عام ١٩٦٤م أعلن الحزب الإفريقي الشيرازى الثورة وعزل آخر السلاطين البوسعيديين (خَليفة بن خرُّوب) وأعلن زنجبار جمهورية شعبية، وعَيّن الشيخ «عبيد كرومى» رئيس مجلس الثورة رئيسا للجمهورية.

وفى اليوم ذاته فوجئ المسلمون بهجوم وحشى سافر على كل عربى ومسلم لا فرق بين صغير وكبير، رجل كان أو امرأة، وسقطت عشرون ألف ضحية خلال ساعات معدودة.

وضُمّت زنجبار بالقوة باتحاد مع تنجانيقا بعد أن نجح ما يسمى بالحزب الإفريقى الشيرازى فى الإطاحة بآخر السلاطين البوسعيديين، وهذا الحزب يتكون من مجموعة من الضباط اليهود والخونة من عملاء الإستعمار والصهيونية العالمية.

وأصبحت تنزانيا تحت حكم نيريرى حقبة من الزمان وبقى الخائن (كرومى) على إذلال ما بقى من المسلمين فى زنجبار حتى السابع من إبريل عام ١٩٧٢م حيث قتله شقيق زوجته الضابط محمد على سيف (من أصل عربى) بينما كان كرومى يجلس فى مقر الحزب الأفروشيرازى، وقد استطاع المهاجمون أن يصيبوا بعض الحاضرين بإصابات مختلفة بعضها خطير[١].

أما سلطان زنجبار فقد هرب بنفسه واستغل سفينة بريطانية كانت بانتظاره لتنقله إلى لندن (مكافأة له على ما فعل ضد المسلمين). وذُكر أن هذا السلطان كان قد فتح الباب على مصراعيه لأعداء الله لبث سمومهم، وجَعَلَ من نفسه لعبة فى يد الإنجليز، دون أن يوثق صلاته بالعالم الإسلامى، ظنا منه أن الإنجليز سيضمنون له بقاء سلطانه[٢].

ومن لا علاقة له بربه فلينتظر ساعة كربه.

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤١٣.

(٢) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص ١٤، ١٥.

زنجبار تلك هى إذًا التى كانت يوما من الأيام تلبس أبهى الحلل، ويرقص الناس عند البحيرات العظمى على مزاميرها بما حباها الله من الغنى والجمال والأمن أصبحت بعد تَعيش فى بؤس وشقاء من شدة الفقر والجهل والمرض بعد أن كانت دولة ذات جاه وصَوْلة، وكان من الممكن أن ينزل بها ما نزل بالدول الإسلامية ثم تفيقُ من كَبْوَتها كما هو الحال فى معظم الدول الإسلامية، ولكن نصيب زنجبار كان قاسيا فقد أناخ الإستعمار عليها بكلكله، ولم يدعها تصحو من جديد، بل مزقها إلى أشلاء، وحوّل أشلائها إلى فتات، ووزع الفتات كما ذكرنا على ممالك يتسم الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة .

وحاول الحكام الجدد أن يقضوا على الإسلام، فاصبح المسلم يوارى إسلامه ويتظاهر بتغيير اسمه، وبخاصة فى تنزانيا، وفَقَدَ العالم الإسلامى بذلك قطرا إسلاميا له فى التاريخ مكانا وسلطانا .

* * *

(جـ) المسلمون فى العيون

تنتشر فى القارة السمراء عموما عمليات اضطهاد، وتشريد، وقتل وتخريب، لا يعلمها ولا يعلم مداها إلا الله وحده .

ففى إريتريا التى استولت عليها الحبشة عام ١٩٦٢م حروبٌ متتالية ضد التوجه الإسلامى، ومحن متعاقبة بعد اغتيالها على يد الطاغية هيلاسلاسى، والملقب بسبط يهوذا، وهو اللقب الذى يفتخر به، وعلى الرغم من إستقلال إريتريا عن أثيوبيا واعتراف الأمم المتحدة بها كدولة مستقلة ذات سيادة إلا أن حروبا مدمرة وطاحنة تدور بين الحين والحين بين الدولتين وقد انتهت آخرها منذ قرابة العامين عند (٢٠٠١م) تقريبًا وقد إدعى كل طرف تحقيق نَصْر على الآخر – إلا أنّهَا كُلها دعاية إعلامية لا تمت للحقيقة بصلة، حيث الطرفان خاسران من كل الجوانب .

ومن العجيب أن يتحول نظام الحكم فى إريتريا إلى النظام العلمانى فى غضون سنوات قليلة، إلاّ أن الأشد عجبا أن يبادر النظام الإريترى بدعم حركة التمرد فى الجنوب السودانى المطالب بانفصاله عن السودان وإقامة دولة مسيحية فى المناطق الجنوبية بل وتدخلت القوات الإريترية لإثارة القلاقل فى شرق السودان وجنوبيه ضد حكومة السودان الشرعية[١] وتساوت بذلك إريتريا وإسرائيل والفاتيكان وبريطانيا وأمريكا حيث يجاهد الجميع من أجل إخراج دولة مسيحية على أرض الجنوُب السودانى (سيرد فى هذا كلام آخر قادما) .

---

(١) وكالات الأنباء العالمية – نقلا عن مصادر سودانية رسمية .

وفى رواندا : يعلم الله حال رواندا حيث مئات الآلاف من القتلى والجرحى، والمشردين، ولا تزال حروب إبادة المسلمين هناك حتى كتابة هذه السطور، تحت ستار سياسى دولى واجتماع داخلى يروجون بهما هذه الإبادة باسم (الحرب العرقية) وفى أوغندة: التى كانت تتبع السيادة المصرية ذات يوم. وفيها أُسقط عيدى أمين رئيسها الشرعى لأنه اعتنق الإسلام، ثم جئ بحاكم مسلم لذر الرماد فى العيون، ولا عيون ترقب ما يفعله الأعداء، وسرعان ما أدخل السجن بعد إبعاده، وتولى مكانه حاكم نصرانى ليعود الإضطهاد ضد الإسلام والمسلمين، وهذه التغيرات لم تتم فى هدوء، بل انتهزها المتآمرون فرصة لتقتيل المسلمين وتشريدهم حتى اليوم.

وقد أرسل « جوليوس نيريرى » أعْتَى قُواته لإبادة المسلمين المؤيدين لعيدى أمين، ولم تنته محنة أوغندة ولن تنتهى طالما يوجد بها مسلمون كما هو كائن فى كل مكان وفى كينيا: اضطهاد للمسلمين، ونشر للمراكز التبشيرية لإيقاف المد الإسلامى.

إنها كذلك فى جملتها وعلى إطلاقها فتَن وحروب ودسائس وتسلط على الشعب المسلم فى أوطانه، والجمعيات التنصيرية تبارك هذه الفتن وتتلقف ضحاياها والمشردين منهم لتنصيرهم.

وفى الحبشة (أثيوبيا) وبعد تقسيم الصومال تعاقب عليها « منليك الحبشى »، و« هيلاسلاسى »، و« مانجستو ماريام » والخلف أسوأ من السلف، فالكل يعمل على قهر الشعب وسلخه من هويته الإسلامية بتعطيل القرآن الكريم ولغته العربية، وقد تم إلغاء المحاكم الشرعية وهُدِّمت المساجد، وقُتل المسلمون بالجملة وقد توارثُو حقْداً مريراً ضد الإسلام وأتباعه وورثوا كذلك عهوداً تَقْضى بإبادة المسلمين. وقد نفذوها جميعا، واستَمَر الأخير (ماريام) على ذلك إلى أن هرب حيث هلك عند أسياده الحُمْر أو (الحُمُر) إن جَازَ هذا، وتمزق كيانه بفضل الله تعالى.

وانظر إلى ما ارتكبته فرنسا من فظائع وما اقترفته من آثام فى حق الشعب الجزائرى المسلم وقد قُتل منه مليون شهيد أثناء كفاحه المشرّف من أجل الاستقلال والحرية، ولا زالت فرنسا تتعاون تعاونا مفضوحًا مع بعثات التبشير العاملة فى الجزائر حتى الآن، تلك الجماعات هى الفاعل الأصلى والمنظم الفعلى لهجرات الجزائريين والتونسيين فى هجرات غير شرعية إلى أوروبا مستخدمين القوارب المطاطية والشراعية التى تعرضهم جميعًا للهلاك المحقق وتقدمهم طعاما لأسماك البحر (سوف يرد الكلام فى هذا الموضوع) وفى الصومال: تحدٌّ سافر لمشاعر المسلمين، وهدم لمساجدهم، وإحراق علمائهم بالنار، والصوماليون يحصدون الآن ما زرعه (زياد برى) من الفتن

والنزاعات بين القبائل فيعيشون حربا هوجاء لا يَعرف فيَها القاتل لم قَتَل، ولا المقتول فيم قُتِل، وأصبحت بلاد بلا حكومة تَعيش حربا لا يعلم مداها إلا الله، وعند أى مدى ستنتهى.

وما أظن ذلك إلا حلقة من الحلقات المتّصلة من سلسلة مؤامرات أعداء الله منذ فجر التاريخ ولا يزالون.

* * *

(د) تفتيت إفريقيا

يبدو أن خبراء الإستعمار وأعوانهم بذلوا قُصارى جهدهم بقصد تحقيق أهدافهم المرحلية، والمستقبلية على السواء، فى مقدمة تلك الأهداف إضعاف القارة وتفتيتها.

واتخذوا وسائل عدة واتبعوا سُبلاً متعرجة لافتعال الأزمات، وخلق المشكلات فى عموم إفريقيا حتى بعد خروجهم منها، وقد نتج عن هذا المخطط الكبير أن قُسِّمت القارة إلى نحو (٥٠) خمسين دولة غير الجيوب الإستعمارية، ومن ثم أصبحت إفريقيا أكثر قارات العالم تعددية سياسية، وتقسيمات حدودية، وهى بهذا تمثل النقيض للقارة الدولة « الولايات المتحدة الأمريكية ».

وقد خلق الإستعمار العديد من التقسيمات بين الجنس الواحد، وبين المتكلمين بلغة واحدة، والمعتنقين لدين واحد.

وقد أسفرت هذه التقسيمات عن وجود عدد كبير من الدول الإفريقية بدون سواحل يزيد عن الدول التى لا سواحل لها فى العالم كله.

ومن هنا يمكن القول أن إفريقيا هى (قارة الدول الداخلية)، بينما وقعت ثلاث دول إسلامية تحت حصار شديد نتيجة تلك التقسيمات وهى: (تشاد، النيجر، ومالى) وقد أُجبرت هذه الدول على توقيع اتفاقيات اقتصادية لتصريف منتجاتها، وقد تطور هذا إلى نوع من التبعية[١]. وهو مقصد من مقاصد الإستعمار.

كذلك فمن المشكلات المُدمِّرة التى نتجت عن تفتيت القارة إلى دول كثيرة ذلك الذى يسمى (تعدد الجيران) حيث جيران – الكونغو – ٩ تسع دول، والسوادن ٨ ثمانى دول، وهى مشكلة تؤثر فى التماسك السياسى والوحدة الداخلية لأبناء الوطن الواحد. وهذا وحده كفيل بتأجيج الصراعات والنزاعات التى لا تخدم إلاّ مُديرى الصراعات، وقائدى المجنزرات.

---

(١) إفريقيا الجديدة ص٧٦ د. جمال حمدان.

كما نتج عن تلك المشكلات عدم تناسق الحدود، حيث وُجدت دول إفريقية فقيرة، لم تقم لها قائمة حتى الآن، إلا من خلال اعتمادها على دولة أخرى، بما فى ذلك أثيوبيا التى جاهدت طويلا وعملت بجهد جبار لخدمة سادتها، فقد تخلوا عنها وجعلوها دولة حبيسة تبحث عن منفذ لها فلم تجد غير إريتريا – ووقعت حروب مريرة بين الدولتين – وما ذلك إلا بقصد توريط أثيوبيا فى حروب طويلة مع جارتها الشمالية إريتريا، وكذلك لخلق بؤرة ساخنة دائمة فى منطقة القرن الإفريقى عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، وحتى لا يُسمح للأفارقة بإقامة مسيحية إفريقية على النقيض من المسيحية الأوروبية، وكذلك خشية حدوث انطلاقة كبرى فى المنطقة في إطار منظمة الوحدة الإفريقية التى تتخذ من العاصمة الأثيوبية (أديس أبابا) – مقرا لها. خاصة وأن المنظمة هذه تضم فى عضويتها دولة عربية إسلامية قوية هى مصر – كانت تلك المنطقة تخضع لسيادتها حينا من الدهر.

وقد استغلت أوروبا جيدا ما نشأ من دول فقيرة لا تستطيع الاعتماد على نفسها فَخَرجت بفكر جديد يضمن تقديم مساعدات مادية واقتصادية لما يسمى (دول الجنوُب) أى (الفقر) وهذا هو منزلق النفوذ والتأثير والضغط الأوروبى لضمان الولاء والعمالة والتبعية من هذه الدول [الصومال – موريتانيا – ليبيا – (قبل اكتشاف البترول بها–) بتسوانا – روديسيا – زامبيا – أوغندة – أفريقيا الوسطى)[1] وأخريات.

كما جعل الإستعمار عواصم المدن فى الدول الساحلية على السواحل مباشرة ولم يسمح بإقامتها فى أواسط الدول لتظل هذه المدن تحت تهديده المباشر، ولإضعاف صلات العاصمة بأبناء الوطن فى المناطق النائية، فتتعذر الخدمات، وَتَنْدُر الإهتمامات، فيخرج المواطنون على الطاعة، وينعدم الولاء، وتبدأ الإضطرابات، ثم ينادى البعض بالإنقسامات، وتبدأ دعاوى التحللية والقُطرية وتسود الفوضى وتعم المصادمات. فتنطلق من جديد دعاوى العودة بحجة الحفاظ على الأمن والقضاء على الإضطرابات وعودة النظام كما هو كائن فى ساحل العاج وليبيريا وما حاولوا فى الصومال ونيجيريا والجزائر مؤخرا.

* * *

(هـ) البيان فى السودان

ولنا فى انفصال السودان درس مستفاد، حيث اتَّجهت بريطانيا بكل قوتها العسكرية وإمكانياتها الفكرية إلى تكريس عزل السودان والإتجاه به جهة الشرق بدلا

---

(١) انظر الأطلس العربى .

من الإتجاه الطبيعى نحو الشمال، والشاهد الأول على ذلك هو الخط الحديدى الذى أُنشئ بالسودان إبان حملة الفتح الإنجليزى المصرى للسودان، وكانت بدايتهُ من وادى حلفا بدلا من أن يبدأ من أسوان – من بداية المنطقة الحدودية السودانية مع مصر والمتوغلة قليلا فى أرض السودن، وقد تم تنفيذ هذا الخط الحديدى بحيث يكون عرضه – أى – المسافة بين القضيبين مختلف تمامًا عن عرض خطوط السكك الحديدية فى مصر، حتى لا يتحقق يومًا الربط بين الخطوط الحديدية المصرية السودانية.

ثم اتجه هذا الخط إلى الشرق على البحر الأحمر حيث أقام الإنجليز ميناء (بورسودان) ليتجه السودان نحو البحر الأحمر ولا يتجه ثانية إلى الشمال أبدًا.

وربطت بريطانيا بين الميناء ومراكز الإنتاج بالسودان ليتم تصريف المنتجات من خلاله، وليتم كذلك إدخال السلع المستوردة أيضًا من خلاله من دون الإتصال بالشمال (مصر).

وما فعلت بريطانيا ذلك لنفع السودان وخيره، إنما كان هو أول أهداف الإستعمار لتحقيق مصالحه ونيل مآربه عَبْر آجال طويلة، كما عمل الإنجليز على فصْل أقاليم السودان خاصة الجنوب، واتّخذوا لذلك وسائل العزل الدينى واللغوى، وأشاعوا بين الجنوبيين أنهم زنوج يختلفون عن الشماليين المنحدرين من الجنس السامى، كما قطعت بريطانيا كل أشكال الإتصال وأوقفت كل صنوف التعاون بين الشمال والجنوب، كما أنها لم تربطهما بالسكك الحديدية، ولم تمهد الطرق، ولم تشجع على الملاحة، ومازال السودان يُعانى من مشكلة الجنوب، ولازال الجنوب يلقى الدعم الأجنبى لتمكينه من الإنفصال، وتتبنى الولايات المتحدة الأمريكية حاليًا فكرة قيام هذه الدولة المسيحية الجنوبية تحت غطاء دبلوماسى يُحاط بَهالة إعلامية ضخمة لِمَا تُسميه ومعها بريطانيا وفرنسا والفاتيكان «حق تقرير المصير».

وتجدر الإشارة إلى أن الإستعمار قد وَضَعَ أمور الدول التى رحل عنها فى أيادى أناس مرتبطين به خاصة أنه هيأ لهم سبل السلطة والنفوذ قبل رحيله. ففى كثير من الدول سواء فى إفريقيا أو فى آسيا حيث توجد أغلبية مسلمة ساحقة تَرَكَ الإستْعمار زمام الأمور فى أياد غير إسلامية وقد أشاع هذا المسلك القلق والتوتر والإضطرابات وفتح أبواب الصراعات على مصراعيها فى كثير من الدول الإسلامية وفيما بين هذه الدول وغيرها من الدول غير الإسلامية.

وبهذا يمكن القول أن إفريقيا تحملت خسارة كبيرة، ودفعت ثمنا باهظا من وحدتها وسيادتها وثرواتها وأبنائها، ولم تنتفع بمزية واحدة من هذا الاستعمار البغيض على الإطلاق.

غير أنها تضررت كثيراً من الإستعمار الأوروبى الذى أنهكها ونهبها وقتل أبناءها ومن أهم مظاهر تلك المضار، أن اقتصر الإنتاج الإفريقى على الإنتاج الزراعى دون الصناعى، وتصدير الخامات المعدنية (الخام) لتصنيعها فى أوروبا، كما استشرى الفساد السياسى والاجتماعى بإثارة الفتن والقلاقل بين القبائل، وبين الدول المتجاورة تحقيقا لمبدأ (فرق تسُد)، تشهد على هذا الحروب الطاحنة الدائرة الآن ومنذ فترة وإلى حين قادم فى (وسط وغرب إفريقيا وشرق إفريقيا) فى رواند وبوروندى وأوغندا والسنغال وليبيريا ونيجيريا وساحل العاج (كوت ديفوار) وإريتريا، وفى جنوب السودان، وغربه فى «دارافور»، بالإضافة إلى مظاهر التوترات ونزيف الدم المستمر فى الجزائر منذ وقت طويل مضى، وبذور الإرهاب التى تم زراعتها فى كل من تونس والرباط والسعودية.

ومن آثاره كذلك إضعاف صحة الأفارقة بإهمال العلاج من جانب، وإدخال الخمور والمخدرات من جانب آخر.

زد على ذلك مجهودات الإستعمار فى نشر الأمراض بين المواطنين لإذلالهم وإضعافهم لتسهيل إيادتهم. بقصد إخضاع الأفارقة وارتباطهم بأوروبا إلى الأبد خاصة بعد أن حاربت أوروبا اللغات الأصلية، وقضت عليها تماماً، وحلت محلها اللغات الأوروبية خاصة الفرنسية والإنجليزية.

وما زالت إفريقيا تصارع وبشدة الإستعمار الأوروبى الحديث – النموذجى – المتطور الذى يحاول العودة إليها تحت شعار (حوار الحضارات) أو كما يُقال أحيانا (حوار الأديان) – وكلها شعارات زائفة لا تتعدى كونها طُعْما يبتلعه المغفّلون وهم كثرٌ فى هذا الزمان – وخير دليل على ذلك ما كان من حوار الأديان المزعوم فى فلسطين والعراق وتركيا وتونس والجزائر وباكستان الشرقية والغربية – واندونيسيا، وفى الهند، وفى استراليا – والفلبين وتايلاند وروسيا، والشيشان، والبوسنة والهرسك .. إلخ.

إنه بحق هو الصراع المحتدم بين الحضارات الذى يجيد الجميع فيه استخدام لغة واحدة هى لغة الدبابات.

* * *

ثالثًا : الأسلاب الإفريقية فى العصر الأسود

كانت بإفريقيا ثروة ضخمة من المواد الخام غير المستغلة، نظراً لإنعدام الخبرات والإمكانيات، والأيدى العاملة المدربة، كما كانت هناك مساحات زراعية واسعة أو تصلح للزراعة، ولم يستثمرها أصحاب الأرض الأصليين.

وعندما جاء الإستعمار الأوروبى إلى إفريقيا كان فى مسيس الحاجة للعنصرين معًا (المواد الخام – الأرض الزراعية) حتى يتمكن من تلبية احتياجات ثورته الصناعية فى عصر النهضة الأوروبية، وكذلك لتتمكن من توفير المواد الغذائية التى تمد بها المستهلك الأوروبى بعد أن هجرت الأيدى العاملة المزارع الأوروبية سعيا وراء بريق الثورة الصناعية التى جذبت إليها أكثر الأيادى العاملة فى المجال الزراعى.

وقد آلت أكثر الأراضى الزراعية، ومناطق الثروات المعدنية التى اكتُشفت فيما بعد إلى ملكية خالصة للإستعمار بعد صدور تشريعات سَنَّها الاستعمار لخدمة أغراضه. حيث قضت هذه القوانين بأن الاعتراف بملكية الأفراد السابقة على الإحتلال يستلزم وجود مستندات ثابتة تؤكد على حق الملكية، ومن الطبيعى عدم وجود مستندات للملكية فى تلك الأوقات، وبذلك سيطر الإستعمار على أكثر أراضى الأفارقة، هذا بخلاف أراضى السلاطين الذين قاوموا الغزو الإستعمارى، وأراضى أُسَرهم، وكذلك أراضى الذين فروا أمام القوات الأجنبية، أو هؤلاء الذين ماتوا أثناء عمليات الزحف، وأراضىَ الغابات والجبال، خاصة أنه قد صَدَرت بشأن هذه الأراضى قوانينَ مصادرة مباشرة، وقد تمكن المستعمرون بفضلها من السيطرة على أكثر الأراضى.

وقد جعلت فرنسا فى مستعمراتها عمليات التعدين وقفا على بعض الشركات الفرنسية الأخرى، وقد بلغ ما استخرج من الذهب فى إفريقيا الغربية فقط على سبيل المثال سنة ١٩٢٩ (ستون ٦٠ كيلو جراما ثم ارتفع إلى ٢٠٣٩ كيلو فى ١٩٣٤م)[١].

وفى شرق إفريقيا: أباحت قوانين الإستعمار سهولة إستيلاء المواطنين الإنجليز على كل ما أمكنهم الإستيلاء عليه، خاصة أنّها ضمنت الإستيلاء على كل الأراضى الخالية أو التى ليس لها ملاك، أو على أى أرض شاءت لأى غرض شاءت، دون أى تعويض يذكر للملاك الأصليين، وتنفيذا لذلك، فقد طُردت قبائل إفريقية بأكملها من أراضيها، واستولت عليها حكومة الإنجليز، وأعطتها للمستغلين البيض، كما قررت التشريعات المذكورة جعل متوسط الأرض التى يملكها الرجل الأبيض عشرة آلاف فدان.

كما تشير الشواهد وتؤكد الإحصائيات على بشاعة الشره الأوروبى فى إفريقيا من ذلك أن الشركات الفرنسية أصبحت تمتلك فى إفريقيا الإستوائية ما يقرب من

---

(١) استعمار إفريقيا ص٢٥٢ د. زاهر رياض.

مليونى هيكتار، أما فى السنغال فلم يكن ما تملكه الشركات الفرنسية أقل من ٩٠,٠٠٠ هيكتار من أجود الأراضى الزراعية[١].

وقد حققت شركة إفريقيا البريطانية ربحًا قدره (٢٩) مليون جنيه عام ١٩٥٠م، وحققت الاحتكارات البريطانية فى غربى إفريقيا وأوغنده ربحا صافيا قدرة ١٣٣ مليون دولار من الكاكاو، وزيت النخيل فقط، فى الفترة ما بين ١٩٤٥ : ١٩٥٢م ، واستخرجت الشركات البريطانية فى السنغال قرابة ٣,٧٦٠,٠٠٠ (ثلاثة ملايين وسبعمائة وستين ألف) أوقية من الذهب[٢].

وعلى هذا فقد استغل الإستعمار الأوروبى اقتصاد المناطق الإسلامية على وجه الخصوص، ووظّفها لصالحه من ناحية السيطرة على الإنتاج ووسائله، واحتكاره كما كان موفقا كذلك فى خلق أسواق استهلاكية لتصريف منتجاته الصناعية.

ومن هنا فإن تَطوراً طرأ على المستعمرات مَرَدُّهُ في المقام الأول لصالح الإستعمار.

أما الإستعمار الإيطالى، والألمانى فقد دمرا تماما وسائل الإنتاج، وقَضَيَا على مقومات الاقتصاد، وخرّبا كل شىء وأفسداه حتى الأراضى الزراعية، بحيث لا تستفيد بريطانيا من المناطق التى كانت تحتلها الدولتان، خاصة بعد هزيمة الدولتين فى الحرب، فلم يستفد منها المستعمر، ولم ينتفع بها صاحبها الأصلى (المواطن الإفريقى).

عموماً فإن إفريقيا الثرية بمصادرها الطبيعية المتعددة آل بها حالها إلى أن تصبح قارة يقتصر إنتاجها على المواد الخام الأولية فقط، والتى يحدد الإستعمار أثمانها – وهى فى كل الأحوال لا تساوى قيمتها الحقيقية – بينما يبيعها الأفارقة بهذه الأسعار الزهيدة نظراً لندرة الأيدى العاملة المدربة، والسطو على حقوق ما أتيح منهم. ثم تنقل الدول الإستعمارية تلك المواد الخام إلى أوروبا بواسطة البحر حيث يتم تصنيعها هناك ثم يُعاد تصديرها إلى إفريقيا لبيعها بأسعار مرتفعة حتى تمتص أوروبا القليل من المال الذى دفعته أجوراً للعمال، أو قدمته على شكل عطايا وهدايا للزعماء الأفارقة المتعاونين معهم.

وانظر معى وتعجب من إفريقيا الواسعة ذات الأنهار الجارية، وذات الأرض الخصبة، وهى التى يَتَنوع فيها المناخ ويختلف ويتباين، بحيث يمكن القول بأنها القارة الرائدة فى مجال إنتاج كافة المحاصيل الزراعية خاصة الاستراتيجية منها، فضلا عن

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص ٤٣١ .

(٢) ثورة إفريقيا ص ٦٢ صبرى أبوالمجد .

كونها تمثل أكبر وأغنى حديقة حيوان طبيعية فى العالم إلى جانب مساحتها مترامية الأطراف، التى تشرف على أكبر محيطات العالم وبحاره كما أن بها أطول أنهار العالم بما يؤهلها لإنتاج الأسماك بوفرة مع إمكانية تصنيعه، وقد أصبحت فى ظل الإستعمار فى مسيس الحاجة إلى رغيف الخبز الذى تستورد له الدقيق الجاهز، والقمح من الخارج ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كما حُرمت إفريقيا من صيد البحر رغم طول سواحلها وتعدد بحارها ومحيطاتها وقد استأثرت به أساطيل الصيد اليابانية، والأوروبية، وحُرمت كذلك من صيد البرِّ الذى استأثر به الأوروبيون فقط.

وهكذا فقد تم تجويع إفريقيا بعد تمزيقها، وإبادة أبنائها، وبيعهم فى سوق الرقيق، وتسخير ما تبقى منهم فى أوطانهم، كما سُلِبَتْ ثرواتها ونُهبت مواردها الخام.

ومن العجيب كذلك أن هذا الإفريقى الجائع فَرَضَت عليه الدول الإستعمارية ألوانا من الضرائب الباهظة، واستُعمل فى جبايتها أساليب قاسية ووحشية.

مثال ذلك: ما كان يحدث عندما تفشل بعض القرى فى تقديم المقدار الكبير من المطاط المستخرج من الغابات فى الموعد المحدد. حيث يتعرض أهلها لأعمال القسوة التى لا يمكن وصفها، حيث جرت عادة البلجيك فى مثل هذه الحالة أن يقتلوا الرجال والأطفال ثم يقطعوا أيديهم لإرسالها إلى المعتمد البلجيكى دليلا على نجاح بعثة العقاب(١).

* * *

رابعًا : القوى الثورية والخدعة الأمريكية

من الواجب الذكر أن إفريقيا قاومت الإستعمار وصارعته مبكرًا صراعا لا يمكن إغفاله، وناهضت الإستعمار الأوروبى منذ مطلعه حتى كبدته قتلى بالآلاف فى منطقة الشرق الإفريقى.

كما يمكن القول أن حركات المقاومة والصراع لم تهدأ يوما من الأيام حتى نهاية القرن الماضى حيث قبيل نهايته، تمكن الثوار فى جمهورية جنوب إفريقيا بقيادة المناضل الأسود (نيلسون مانديلا) من التخلص من نظام برويتوريا العنصرى بقيادة (فريدريك ديكليرك) الذى تسانده بريطانيا.

وإذا كانت إفريقيا قد استطاعت أن تتخلص تماما من السيطرة الإستعمارية الغربية ذات الطابع العسكرى السافر، وانسحبت منها جيوش الإستعمار، ومن ثم فقد

(١) التاريخ الإسلامى ص ٤٦٥ .

عادت الحقوق السلبية إلى أصحابها، غير أن الواقع العملى على الأرض يؤكد على أن بعض الدول الإستعمارية لم تقنع بما سرقتهُ أو سلبته من إفريقيا، فراحت تؤسس برنامجا وتخطط له جيداً بقصد مشاغلة الأفارقة، وإفساد أنشطتهم، وتَحويل اهتماماتهم عن قضايا التنمية، وإعادة البناء، وقد تمكنت من بناء جيش من المرتزقة البيض ينوب عنهم، ويحل محلهم فى دعم المتمردين، وإثارة القلاقل، والفتن، ومناهضة الوطنيين، ولا يزالون بداخل إفريقيا حتى الآن يتخذون من غينيا البرتغالية، وجنوب السودان، وشرق نيجيريا مراكز لهم حتى الآن.

ويذكر التاريخ على صفحاته أن الإسلام يعد العنصر الأقوى والسلاح الأمضى الذى ساعد على إذكاء حركات التحرر الوطنى مبكرا فى القارتين الآسيوية والإفريقية على السواء، فقد وجد المسلمون جماعات التنصير (إرساليات التبشير) وهى تحارب الإسلام لتقضى عليه قبل كل شيء، فتفجرت روح الإسلام الأبيّة عند أتباعه، فتجمعوا ضدّها، وتكتلوا عليها، فأزعجو المستعمرين وأرقوا مضاجعهم، وكبدوهم خسائر جمّة فى المناطق ذات الأغلبية المسلمة، التى لم يذُق فيها للإستقرار طعما ولم يعلم فيها للأمن سبيلا، وقد تعرضت قواتُه لأخطار جسام وقابلت صعابًا جمة.

هذا بالإضافة إلى الدول الإسلامية فى المحيط الدولى التى تبنّت حركات التحرر التى هبت ثائرة بين مسلمى إفريقيا، وهكذا اجتمع النضال الخارجى والداخلى والتقيا فى فترة هى الأحرج فى تاريخ القارة عبر تاريخها الطويل.

كما ساهم الصراع بين الدول الإستعمارية مساهمة فعالة ومباشرة فى تصاعد الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال خاصة مع اتساع نطاق الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٤م لتشمل العالم كله. آنذاك حاول الرئيس الأمريكى (وودرو ويلسون): (١٩١٣ : ١٩٢١) أن يضع حداً لهذا الصراع، فأعلن فى تصريح له عن مجموعة من المبادئ من أهمها (حق الدول فى تقرير مصيرها).

وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى هبت الشعوب الواقعة تحت الإحتلال تطالب بالحرية والإستقلال، استناداً على الوعود التى حصلوا عليها من حلفائهم، وتأسيساً على المبدأ الذى أقره رئيس دولة الحريات وزعيمة العالم الحر (أمريكا).

ولكن خاب سعيهم وتبخرت أحلامهم بعد أن تأكدوا أن تصريح ويلسون لا يتعدى كونه مجرد خدعة ومناورة لجذب المستعمرات، والحصول على تأييدها، وضمان دعمها إلى جانب الحلفاء وقت الحرب، فثار لأجل ذلك الزعماء، وعاقبتهم الدول الإستعمارية بالنفى خارج البلاد فكان ذلك إيذانا باشتعال النار.

واستمرت الأوضاع على حالها حتى وقعت الحرب العالمية الثانية، وادعا طرفا الحرب (الحلفاء، والمحور) أن انتصاره سيكون بمثابة الخلاص، والإنطلاق نحو الحرية، وقد قفزت بعض الدول الإستعمارية فوق الأحداث وأعطت مواثيق بذلك.

وقد كان نداء الرئيس الأمريكى «فرانكين ديلانوروزفلت / ١٩٣٣ : ١٩٤٥م» ذا أثر خطير على قبول هذه الدول إعطاء تلك المواثيق، كما كان له كذلك فعل السحر على الشعوب السمراء التى قاتلت جنبا إلى جنب مع المستعمرين بحيث يمكن القول أن مشاركة الأفارقة أسهمت إلى حد كبير فى انتصار الحلفاء على المحور، بعد أن تلقوا بصدورهم سهام الموت فى حرب لا طائل لهم منها إلا الأمل فى وفاء الدول المتحاربة فيما وعدت به.

وقد اختلف رد الفعل الإفريقى عقب هذه الحرب عن سابقتها، حيث اتسم تصرفهم بالنضج والإرادة، فلم ينتظروا وفاء هؤلاء بمواثيقهم، وعهودهم كما كان عقب الحرب العالمية الأولى، فقد هبت دول القارة تعلن من جانب واحد استقلالها، دون الإنتظار لقرارات أجنبية فى هذا الشان.

وكان رد الفعل الأوروبى يهدف إلى إفساد هذا الإتجاه والقضاء عليه، غير أنها لم تتمكن من نيل مأربها، ولم تستطع التصدى أمام الإرادة الجبارة للثوار المنتفضين فى سبيل حرية بلادهم واستقلالها، فاعترفت مكرهة بالحقيقة الجديدة حتى لا تقع الدول الإستعمارية فى مثل الخطأ التاريخى الذى وقعت فيه هولندا عندما قاومت الحركة الثورية فى أندونيسيا، وحاولت قمع المواطنين ومصادرة تطلعاتهم، ووأد آمالهم، غير أن إرادة الشعب الإندونيسى المسلم دوخ الهولنديين، وأزلهم، وانتصرت أندونيسيا، وخسرت هولندا مستعمراتها (سيرد ذلك لاحقا) ولم يكتب لهولندا حتى الآن أن تكسب صداقة الشعب الإندونيسى الذى خضع لها عدة قرون.

فخضعت أوروبا، ونزلت على إرادة الشعوب الثائرة حتى لا تفقد صلاتها بتلك الدول، ولتضمن دورانها فى فلكها، والمحافظة على مصالحها، من ذلك مثلا ما يُعرف الآن بمنظمة الدول المتحدثة بالفرنسية (الفرانكفونية)، ومجموعة الكومنولث (الناطقة بالإنجليزية) حيث تأسس الكومنولث البريطانى بين بريطانيا ومستعمراتها السابقة عام ١٩٣١م ... وهكذا.

ولا يمكن إغفال الدور الهائل الذى اضطلع به التعليم فى إثراء الفكر الإفريقى، وإذكاء روح الحرية والسيادة، بعد أن اتجهت إفريقيا نحو التعليم مع مطلع القرن العشرين، على الرغم من أن بعضهم قد تربى فى المدارس التبشيرية، إلا أنهم لم

يسيروا فى المخطط الذى رسمه لهم المبشرون، أو المستعمرون، بل صار المتعلّمون الأفارقة يخططون لأنفسهم، ويعملون لصالح بلادهم.

وقد كانت البعثات التعليمية التى أوفدت من العديد من دول إفريقيا، خاصة من التحق منهم بالأزهر الشريف بمصر، وبعض الجامعات بالساحل الشمالى الإفريقى، فضلا عمن التحق بالجامعات الأمريكية والأوروبية، وقد كان لذلك كله عظيم الأثر بعد أن عاد هؤلاء الطلاب، وهم يجيدون اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، كما أن بعضهم أجاد اللغات الأجنبية، مما ساعدهم على شرح قضاياهم للرأى العام العالمى، وقد مكنهم من الدفاع عن حقوقهم بقُلوب متفتحة، وآفاق طموحة، وقد أعدوا عُدّتهم لرفع راية الحرية فوق أراضى بلادهم، حتى حققوا أو تحقق لهم نجاح قضايا بلادهم.

كما ساعد التعليم فى تحقيق نجاحات متنوعة على أيدى هذا الجمع المتعلم الذى تمكن من إزاحة القبلية عن طريق العمل العام، وثابروا واجتهدوا حتى قامت الدولة وانتعشت والتقت تحت راية واحدة، بعد أن كانت متناحرة أو متنافرة أو هى كثيراً متحاربة، وكانت هذه قوة زلزلت الأرض تحت أقدام الغزاة المستعمرين الوافدين من شمال المتوسط.

وقد تضافرت جهود الأفارقة وتعانقت طموحاتهم، وتوحدت صفوفهم كثيراً لرد هذا الإعتداء، فصارت للأفارقة مؤتمرات تعقد بصفة دورية أو استثنائية كلها كانت وليدة الأحداث التى استدعتها الحاجة حتى من قبل أن تنال العديد من دول القارة حريتها وتسترد سيادتها.

أفرزت الأحداث المتسارعة والمرتبطة بمثيلاتها فى العالم العربى مترامى الأطراف فى القارتين الإسلاميتين (آسيا، وإفريقيا) عن ميلاد أول نواة لوحدة عربية تجمع بين العرب وتوحد جهودهم وتحقق أهدافهم المشتركة، فخرجت إلى الحياة ما تسمى (جامعة الدول العربية) فى ٢٢/٣/١٩٤٥م. ثم اجتمعت إفريقيا فى إطار سياسى لأول مرة فى التاريخ فى مايو ١٩٦٣م حيث تأسست منظمة الوحدة الإفريقية خلال إجتماع القادة الأفارقة المنعقد فى العاصمة الأثيوبية (الحبشة).

ثم جاء مؤتمر الدول (الإفريقية – الآسيوية) معبرا عن آمال شعوب القَارَّتَيْنِ عندما انعقد مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥م، وفيه ناقش المجتمعون حقوق الإنسان الأساسية فى الاستقلال ومناهضة الاستعمار.

وفى ١٩٥٧م انعقد فى القاهرة مؤتمر الشعوب (الأفريقية ، الآسيوية) وفيه طالب المؤتمرون بإقرار حق الشعوب فى المستعمرات فى الإستقلال التام، كما أيد مطالب شعوب الكاميرون، وكينيا، وأوغندا، والجزائر، ومدغشقر، والمغرب، والصومال فى التمتع بالحريات، وفى ديسمبر من العام التالى كان مؤتمر (أكرا) العاصمة الغانية، وفيه طالب المجتمعون بعدم الإنضمام إلى كتلة من الكتل، وبضمان سيادة الدول الإفريقية، ومناهضة الإستعمار.

وقد لعبا (الاتحاد السوفييتى، والولايات المتحدة)، وهما القوتان الكبيرتان اللتان أفرزتهما الحرب العالمية الثانية دوراً كبيراً وساهما بعمل كبير فى نجاح الحركات الثورية فى القارتين وذلك عن قصد واضح لتحقيق أغراض استعمارية جديدة.

وذلك لأن القوتين الأعظم ليست لهما مستعمرات فى كل من آسيا وإفريقيا فسال لُعابهما، وتطلعا لمد نفوذهما فى هذه المناطق، سواء بالتواجد المباشر أو غير المباشر عن طريق عقد روابط صد قة أو تجارة أو معاهدات عسكرية.

وقد ناهضت الدول الإستعمارية رغبة الدولتين مناهضة جبارة للحيلولة دون تحقيقها، إلا أن الدب السوفيتى وقف وبقوة فى صف شعوب إفريقيا، وارتفع صوته فى الأمم المتحدة مناصراً ومؤيداً حق الشعوب فى الحرية، كما قدم العديد من أشكال الدعم وألوان العون للدول التى نالت استقلالها حتى لا تعود بسبب الفقر والحاجة إلا الإرتماء فى أحضان الإستعمار الاقتصادى (الجديد)، وخَطَى السوفييت خطوات قوية ومتحررة يدفعهم لذلك انعدام الصلات والمجاملات أو العلاقات المباشرة مع المستعمرين الأوروبيين التى إن وُجدت فقد تجعله يغض الطرف عن تصرفات الإستعمار، أما أمريكا فقد فعلت غير ما فعل السوفييت لإرتباطها العسكرى والاقتصادى والاستعمارى والعقائدى مع أوروبا إلى الحد الذى جعل (روزفلت) يرسل قواته إلى أوروبا وشمال إفريقيا والمحيط الهادى فى ١٩٤٢م، لتقديم مختلف أُوجه المساعدات لأوروبا، وهو الموقف الذى تمخض عنه لاحقا إعلان تأسيس حلف شمال الأطلنطى (الناتو) فى ١٩٤٩ م – بزعامة أمريكا.

وبغض النظر عن الدوافع التى جعلت الاتحاد السوفييتى يسلك ذات المسلك فإنه يمكن القول بأن النتيجة كانت استقلال الشعوب الإفريقية.

إلا أنه استقلال منقوص، لم يحقق طموحات الأفارقة حتى الآن خاصة بعد أن تقَطّعت أوصال القارة، وأُعيد تشكيل حدودها السياسية بشكل جديد بين دولها، مما جعل صداما كبيرا، واختلافا فى الثقافات التى تباينت بعد فشل القبائل فى تغيير

نَسبها أو الإقتناع بالوضع الجديد وعجزهم عن التعايش السلمى فى المجتمعات الجديدة الغريبة (غير المنسجمة) فاستمرت بذلك الحروب الأهلية الحادة، الطاحنة التى راح ضحيتها مئات الآلاف منذ استقلال إفريقيا وحتى كتابة هذه السطور.

كذلك فقد تعمد الإستعمار تفتيت القارة إلى دول أو (دويلات)، صغيرة هزيلة، متعددة، وضَعيفة لتظل تتطلع إليه، وتعتمد عليه، بما يؤكد أن عملية تفتيت القارة لم يكن برغبة السكان أو لصالحهم، إنما كانت مخططًا استعماريا يهدف إلى خدمة مصالحه العميقة وإلى أمد طويل.

* * *

خامسًا: الجغرافية الإسلامية فى إفريقيا

هناك ما يدانى الخمسين مليونا من المسلمين أو يزيدون قليلا، يعيشون متناثرين فوق أراضى القارة الإفريقية.

ومن المثير للدهشة أنهم يمثلون أغلبية السكان فى بعض دول القارة مثل: (أثيوبيا، وسيراليون، وداهومى والكاميرون، وساحل العاج، وتنزانيا وإفريقيا الوسطى)، إلا أنهم مغلوبون على أمرهم رغم كونهم أغلبية، والذى يُبطل العجب فى هذا أن الإستعمار الغربى لما أحسّ بنهايته ودُنُوّ أجل رَحيله استجابة للثوزات، ومطالب الشعوب فى الحرية والإستقلال، أسلَمَ السلطةَ إلى من ينوبون عنه فى إدارة شئون البلاد ليضمن ولاءهم، وفى طليعتهم أعوانهم الصليبيين من الأفارقة الذين يُصبغون الدول بالصِّبغة الصليبية، ويعملون فى خدمة سادتهم الغربيين، ويتفانون فى القيام على مصالحهم على الوجه الأكمل.

يعود السبب فى ذلك إلى أن الدين الإسلامى دين حرية وكرامة وعزّة بطبعه، كما أنه من أهم أركانه الجهاد الذى يوجب القتال ضد أعداء الدين ويتخذ منه شريعة ومناهجا قولا وعَملا لقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الأنفال: ٣٩].

من هنا كانت الثورة والجهاد فى كل البلاد التى فيها مسلمون، وتبعا لذلك لم يأمن الإستعمار جانب المسلمين، ولم يطمئن إليهم البتّة، ورأى أن التعاون البناء المثمر سيكون مع سواهم من أتباع الصليبية الذين صاروا تابعين لهُم فى الدين والسياسة.

ونسوق فى هذا السياق أرقاما تمثل تعداد المسلمين بالنسبة المئوية إلى مجموع السكان، وهم فى أوطانهم يمثلون أغلبية إلا أنهم يعيشون تحت حكم لا يحمل الطابع الإسلامى. وتوزيعهم على النحو التالى[1]:

(١) مواقع متعددة على شبكة المعلومات الدولية (إنترنت).

غينيا البرتغالية	٥٥٪
سيراليون	٦٥٪
ليبيريا	٣٠٪
ساحل العاج	٥٥٪
فولتا العليا	٥٥٪
غانا	٣٠٪
توجو	٥٥٪
داهومى	٦٠٪
الكاميرون	٥٥٪
الجابون	٤٠٪
الكونغو برازافيل	١٥٪
إفريقيا لوسطى	٦٠٪
إثيوبيا (الحبشة)	٦٠٪
أوغنده	٢٠٪
كينيا	١٩٪
تنزانيا (تنجانيقا)	٦١٪
موزمبيق	٢٥٪
ملاجاشى (ملجاش) (جزر القمر)	٢٠٪

ومن الجدير بالذكر أن هذه النسب المذكورة يرجع تاريخها لنحو عقد من الزمان، وعليه فإنه لا حرج إن جانبها الصواب فلم تُعبِّر تعبيراً دقيقًا لتعذر ذلك فى الوقت المعاصر بسبب الحروب الدائرة فى إفريقيا وآخرها ما كانت عندَ البحيرات العظمى بين الهوسا والتوتسى والتى راح فيها أكثر من مليون قتيل، وإذا افترضنا أن معدل الزيادة انسكانية فى إفريقيا هو من ١ :٣٪ سنويا عند مجموع الأفارقة، لثبت بالتالى أن الأرقام سابقة الذكر أقرب إلى الحقيقة خاصة مع حروب الإبادة المنتشرة فى القارة الحزينة التى وقعت بين سندان الصراع ومطرقة الحوار .

وقد ذكرنا سابقا ما ارتكب جوليوس نيريرى ضد زنجبار أثناء صراعه لإبادة الوجود الإسلامى هناك ورأينا كيف أدار حواره ضد الحضارة العظيمة.

أما فى جمهورية إفريقيا الوسطى؛ فالموقف مختلف تمامًا، حيث نجد الإمبراطور (جان بيدل بوكاسا) الذى تربى فى مدارس البعثة التنصيرية الكاثوليكية، والذى

تولى رئاسة بلاده عام ١٩٦٦م بعد أن قاد صراعا مريراً وطويلا ضد الإستعمار وضد المتعاونين معه.

وقد اعتنق «بوكاسا» الدين الإسلامى خلال فترة رئاسته للبلاد، ونظراً لأنه كان يؤمن بقيمة التعاون العربى - الإفريقى، وضرورة توظيفه لخدمة القضايا المشتركة خاصة فى مجال مناهضة الإستعمار، وقد برهن الرجل عمليا على مواقفه، وأعلن قطع علاقات بلاده الدبلوماسية مع إسرائيل فور اندلاع حرب التحرير الكبري التى خاضتها مصر وسوريا فى أكتوبر عام ١٩٧٣ م.

وكان لإشهار إسلام بوكاسا أثراً كبيراً فى انصراف حشد كبير من المواطنين عن المسيحية، ودافعا قويا لهم لدخولهم فى دين الله طواعية واختيارا.

لم يهنأ بوكاسا ولم تَطُل به فَترة حكمه، فتآمرت عليه الصليبية وأعوانها، ودبروا انقلابا عسكريا تمكن من الإطاحة به، واقتادهُ القادة الجدد إلى السجن واتَّهمُوه باتهامات خطيرة من بينها :

- انتشار الفساد والمحسوبية، واتهامه بالديكتاتورية .
- إطلاق أيدى غير الأمناء، وتسليطهم على أبناء الشعب .
- الإضرار المباشر بالمصالح العليا للبلاد.

وكانت أخطر تلك الإتهامات أن وجهت إليه تهمة أكل لحوم البشر، وقد تحدثت أنباء عن إسقاط التهم المنسوبة إليه عدا الأخيرة، التى حوكم بسببها، وقد صدر ضده حكم بإعدامه ونُفِّذ فيه بعد فترة.

ومن المثير للدهشة أن تروج المحافل الماسونية المنتشرة فى العالم العربى أكاذيب وأباطيل تتعلق بسيرة الرجل الإمبراطور الذى إعتنق الإسلام، حيث ترددت كثيرا عبر وسائل الإعلام المتعددة جُملة (الإمبراطور آكل لحوم البشر)، وما ذلك إلا تحويلا لإهتمامات المسلمين عن إعدام الإمبراطور الذى اعتنق الإسلام، وما رَميه بأبشع الإتهامات وأعظمها جُرْمًا إلا سَكْبًا للماء على النار التى تتوارى تحت الرماد. وقد أكلها المغفلون وشربوها.

* * *

ومن أوغندة مثال آخر

يتطابق مع مأساة المرحوم بوكاسا إنه الرئيس الأوغندى (عيدى أمين) الذى اعتنق الإسلام، فَتَمَّ إسقاطه على يد انقلاب عسكرى فى مؤامرة صهيونيَّة - صليبيَّة، علنيَّة ومفضوحة جزاءً له على دخوله الإسلام، وتقربه من العالم العربى خاصة

(مصر) . وكذلك لإعلانه قَطع علاقات بلاده الدبلوماسية مع إسرائيل، وطرد خبرائها وسفيرها، ورعاياها، وتطهير أراضي بلاده من دنس الإسرائيليين وقذارتهم[1] .

وتم تعيين حاكم مسلم لذر الرماد فى العيون، وسرعان ما أُبعد وأدخل السجن، وتولى مكانه حاكم نصرانى ليعود الإضطهاد ضد الإسلام والمسلمين من جديد .

غير أن هذه التطورات لم يشأ لها المتآمرون أن تتم فى هدوء، بل انتهزها المتآمرون فرصة لتقتيل المسلمين، وتشريد الكثيرين منهم، وحتى اليوم .

وقد أرسل السفاح (جوليوس نيريرى) عليه لعنات الله – أعْتى قواته التي تدخلت علنا ومباشرة فى أوغندا لإبادة المسلمين المؤيدين لعيدى أمين، ولم تنته محنة أوغنده، ولن تنته ما دام يوجد بها مسلمون، كما هو الحال فى كينيا، ورواندا التي يعلم الله حالها حيث (مئات الآلاف) من القتلى والجرحى والمشردين، ولا تزال الحرب دامية والصدام على أشده بين المسلمين والمسيحيين المجندين والعملاء لجهات خارجية، هى الأصل الكبير والقاسم المشترك الأعظم فى إدارة الصراع والتخاطب بالحوار .

إنها فى الجملة فتن، وتسلط على هذه الشعوب، والجمعيات التنصيرية تبارك هذه الفتن، وتتلقف المشردين منهم لتنصيرهم كما هو الحال فى بعض دول آسيا مثل (رومانيا – ألبانيا) .

وهذه هى نار الفتنة المشتعلة فى الجزائر منذ سنوات، وقد أشعلها الغرب الصليبيى، وقد هددت فرنسا بإرسال ألف مُضلِّى (جُندى) فرنسى لحفظ الأمن كما يزعمون، ولا يُخْفِى هذا فى حقيقته غير محاولَة إيجاد سقف شرعى لحماية جماعات التبشير التى تعمل كخلية نحل فى الجنوب والشرق الجزائرى، (سيرد ذلك فى حينه لاحقا إن شاء الله تعالى) .

وإذا كانت دولتان مسيحيتان قد نجتا من الاستعمار الأوروبى وآثاره، فإن هناك دولتين أخريتين قد لقيتا عنتا كبيرا وتحملا نصيبا أعظم من المآسى المروعة والتضحيات الجسام، دون غيرهما من دول القارة – كونهما – ضمّا على أرضيهما ممالك إسلامية عظيمة . أثْرَت الحياة العلمية والثقافيّة والحضارية فى الشرق والغرب الإفريقى على السواء، ثم إلى أواسط القارة وجنوبها انطلاقا من هاتين المملكتين (السنغال ، وزنجبار) .

ويذكر المؤرخون أن هول الصدام الناتج عن صراع الحضارات فوق تلك الأراضى الإسلامية كان كبيراً، وأن نتائجه كانت أكثر مرارة، والشاهدُ على ذلك ما صنعه

---

(١) للإستزاده – المؤامرة الكبرى – للمؤلف .

الإستعمار بابناء هاتين المملكتين، حيث أنشأ فوق أراضيهم أكبر المراكز المتخصصة فى تجارة البشر (سوق النخاسة – الرقيق)، ثم أخذ يجلب الرقيق إلى تلك الأسواق لتبدأ المعاناة، معاناة تعذيب للإنسان للإنسان وتسخيره وتَحقيره وإذلاله واستعباده.

وإذا كان ذلك هو حال معظم دول القارة السمراء فإنه تجدر بنا الإشارة إلى إثيوبيا الجزيرة المسيحية فى المحيط الإسلامى وهى التى كانت تدين بدين النصرانية قبل قدوم الإستعمار، الأمر الذى تمكنت بواسطته أوروبا من الإنتفاع بها، لتنوب عنها فى صراع مرير ضد المسلمين ولتكون قاعدة انطلاق بعثات التبشير التى تموج بها القارة.

أما ليبيريا فقد أعادت إليها الولايات المتحدّة، بعض العبيد الذين كانوا قد سبق بيعهم فى العالم الجديد، وقد اعتنق هؤلاء المسيحية قهرا وقسراً أثناء رحلة شقائهم وغُربتهم.

بينما يعود الهدف الأمريكي من وراء هذا التصرف أن يكونوا طليعة للفتح الإستعمارى الأمريكى فى إفريقيا فى الوقت المناسب، ولتضمن لنفسها مبكرا موطئ قدم هناك، وما ذلك كله إلا صَنيعَةٌ إستعمارية صليبية أمريكية من طراز فريد يقدم بُرهانا أكيدا على أن إفريقيا فى عيون الأمريكيين – وأن أمريكا قادمة إليها لا ريب بعد أن تنتهى من إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط الجديد، وإعادة تشكيل تركيبته السكانية والثقافية بما يتواءم مع مخططاتها الرامية إلى انفراد وحيد القرن بحكم العالم.

* * *